القاعدة الخامسة عشرة:

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشِّرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان.

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:

النصر، قال في إنزال الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

وأعمُّ من ذلك كله قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، **وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد بهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف، والتوفيق، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العُسرى.**

ومن ذلك، بل ألطف: أن يجعل الشَّدّات مبشِّرة بالفرج،...

التعليق

لأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾

[الطلاق: ٤]، فإذا رأيت الأمور متيسرة لك متسهلة، وأن الله يقدم لك الخير حتى وإن كنت لا تحتسبه، فهذه لا شك أنها بشرى. وإذا رأيت الأمر بالعكس فصحح مسارك، فإن فيك بلاء. أما الاستدراج، فيقع إذا كنت مقيماً على معصيته، والنعم ما تكون استدراجاً إلا لمن أقام على معصية الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. أما إذا كانت للمؤمن فليست استدراجاً.

❑ ❑ ❑

... والعُسر مؤذناً باليُسر، وإذا تأملت ما قصَّه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، **رأيت من ذلك العجب العُجاب. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾** [الشرح: ٥ ـ ٦]، **﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾** [الطلاق: ٧]، **وقال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[1] وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.**

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، وعبد بن حميد (المنتخب ١/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩) وصححه الألباني، والبيهقي في الشعب (١٠٤٣)؛ وفي الأسماء والصفات ص٩٧، وفي الاعتقاد ص٥٨ ـ ٥٩، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)؛ والحاكم (٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٢)؛ وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٢٤ ـ ٢٥٢٥)؛ والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)؛ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٦١٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٨٩ ـ ١٩٠). وهو قطعة من الحديث المشهور في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما (كما في بعض روايات الحديث).

القاعدة السادسة عشرة:

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، **فحَذْف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره؛ ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله، وشدته، وفظاعته، لا يعبّر عنه، ولا يُدرَك بالوصف. ومثل قوله تعالى:** ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥]، **أي: لَمَا أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط، والغفلة، واللّهو.**

التعليق

هذا واضح؛ حذف الشيء في مقام التعظيم يدل على شدّته وهوله، وكذلك إبهامه وإجماله، مثل قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، فإن هذا يدل على أنه غشيهم أمر عظيم، وإلا لقال قائل: هذا تحصيل حاصل، غشيهم ما غشيهم، لكن هذا من باب التعظيم وتفخيم الشيء، كذلك هذه الآيات التي فيها ذكر الشرط وحذف الجواب كلّها تدل على عظمة هذا الجواب.

القاعدة السابعة عشرة:

بعض الأسماء الواردة في القرآن الكريم إذا أُفرد دلَّ على المعنى العام المناسب له، وإذا قُرن مع غيره دلَّ على بعض المعنى، ودلّ ما قُرن معه على باقيه.

التعليق

يقال: «إذا أفردت عمَّت، وإذا قُرن معها غيرها خصّت»، ويقال: «إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا».

❑ ❑ ❑

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: «الإيمان» أُفرد وحده في آيات كثيرة، وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين، وشرائعه الظاهرة والباطنة؛ ولهذا يرتّب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. والآيات التي قُرن الإيمان فيها للعمل الصالح؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها: بما في القلوب من المعارف، والتصديق، والاعتقاد، والإنابة. والعمل الصالح: بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البرّ» و«التقوى»، فحيث أُفرد البرّ دخل فيه امتثال

الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أُفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البرّ والتقوى عند الإطلاق الثواب المطلق، والنجاة المطلقة، كما يرتبه على الإيمان. وتارة يفسر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير، وترك المعاصي. وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]، إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتمّ بها التقوى. وإذا جمع بين البرّ والتقوى، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، كان البرّ اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال، والأفعال، الظاهرة والباطنة. وكانت التقوى اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرّمات.

وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان» إذا قُرنت فُسِّر الإثم: بالمعاصي التي بين العبد وبين ربّه. والعدوان: بالتجرؤ على الناس في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم. وإذا أُفرد الإثم دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها؛ سواء كانت بينه وبين ربّه، أو بينه وبين الخلق. وكذلك إذا أُفرد العدوان.

وكذلك لفظ «العبادة» و«التوكل» ولفظ «العبادة» و«الاستعانة» إذا أُفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول ما يدخل فيها: التوكل، والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، فُسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفُسِّر التوكل باعتماد القلب

على الله في حصولها، وحصول جميع المنافع، ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك «الفقير» و«المسكين» إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، كما في أكثر الآيات، وإذا جُمع بينهما؛ كما في آية الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فُسِّر الفقير بمن اشتدّت حاجته، وكان لا يجد شيئاً، أو يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً. وفُسِّر المسكين بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالّة على تلاوة الكتاب، والتمسُّك به؛ وهو: اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدِّين كله، فإذا قُرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، كان ذكر الصلاة تعظيماً لها، وتأكيداً لشأنها، وحثاً عليها؛ وإلا فهي داخلة بالاسم العام، وهو التلاوة، والتمسك به، وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة:

في كثير من الآيات يخبر بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية، أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره.

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقتره على من يشاء؛ دلّ ذلك على كمال توحيده، وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء بيده؛ يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلِّقوا أملهم ورجائهم به في حصول ما يحبّون منها، وفي دفع ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحداً غيره؛ كما في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضالّ إلا مَن هديته، فاستهدوني أهدكم»[1] إلى آخره.

وفي بعض الآيات يذكر فيها أسباب ذلك؛ ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع، ويدعوا الضارّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]، فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير: تصديق العبد لربّه، وانقياده

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم. حديث رقم (٢٥٧٧) (٤/ ١٩٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لأمره، وأن أسباب الضلال والتعسير ضدّ ذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، **فأخبر أن الله يهدي من كان قصده حسناً، ومن رغب في الخير واتّبع رضوان الله، وأنه يُضلّ من فسق عن طاعة الله تعالى، وتولى أعداءه الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين؛ وكذلك قوله:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، **وقوله:** ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، ويُستحق بها العذاب؛ كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. **ثم ذكر الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]...

التعليق

هذه الآية عظيمة؛ لو قال لنا قائل: أنا أرجو رحمة الله، وأخاف عذاب الله! ننظر هل هو من هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ إن كان كذلك، فهو صادق، وإن كان غير ذلك، فإنه ممن تمنى على الله الأماني؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾. أما أن يقول: أنا أرجو رحمة الله، وهو لا يصلي! ـ مثلاً ـ فهذا غير مقبول؛ فالذي يرجو رحمة الله حقيقة لا بدّ أن يسعى لها.

❑ ❑ ❑

... وأعمُّ من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]**، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً، وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً.**

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٥ ـ ١٨]**، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** [طه: ٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنه لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوى؛ كقوله تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]**. وانتظار الفرج والرزق؛ كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾** [الطلاق: ٧]**، وكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا**

حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، ﴿... ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نـــــوح: ١٠ ـ ١١]، **فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلَبُ به مغفرة الله، ورزقه، وخيره؛ وضدّ ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة، قد عرفت طريقها فالزمه.**

القاعدة التاسعة عشرة:

خَتْم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدلّك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم من معرفة الله، ومعرفة أحكامه، من أجَلِّ المعارف وأشرف العلوم، تجد آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة، والقدرة، والحكمة، والعلم، والقهر. ولا بأس هنا أن نتتبّع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها؛ فقوله تعالى في قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ذِكْرُ إحاطة علمه بعد ذِكر خلقه للأرض والسمٰوات يدل على إحاطة علمه بما فيهما من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤]، فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربّهم في ذلك، فلما خلق آدم، وعلَّمه أسماء كل شيء، وعجزت الملائكة عنها، وأنبأهم آدم بها: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فاعترفوا لله تعالى بسِعَة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم في استخلافه في الأرض. وفي هذا أن الملائكة على عظمتهم، وسعة معارفهم بربّهم، اعترفوا بأن علومهم تضمحل عند علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فخَتْم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين ـ الدالين على علم الله بآدم، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة ـ من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وخَتْمُه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر رحمته، ومغفرته، وتوفيقه، وحلمه؛ فمناسبته لكل أحد، وأنه لما كان هو التوّاب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفَّقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم غفر لهم ورحمهم فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة والأسباب، وتاب عليهم ثانياً حين قبل مَتابَهُم، وأجاب سؤالهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: أقبل بقلوبهم، فإنه لولا توفيقه وصَرْف قلوبهم إلى ذلك لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمّارة؛ فإنها لا تأمر إلا بالسوء إلا من رحم الله، فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته وتفرّده بالملك، فقال:

﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٧]، **وفي هذا ردّ على مَن أنكر النسخ ـ كاليهود ـ، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه، فإنه تعالى يتصرّف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حَجْر عليه في شيء من ذلك.**

ولمّا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، **أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه في الأمور الماضية والمستقبلة، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبل المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيّات المستقبلين لجهة من الجهات إذا أخطؤوا القبلة المعينة، فحيث تيمّم المصلي تيمّم إلى وجه ربِّه.**

التعليق

المعنى: أن الناس كانوا أول ما قدم النبيّ ﷺ إلى المدينة يصلّون إلى بيت المقدس، فهو قبلة. ثم نسخ إلى بيت الله الحرام، فصار قبلة. فإذن، الحكمة في كون الله عز وجل أقرّهم أو أذن لهم أو شرع لهم أن يصلّوا إلى بيت المقدس أول ما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم نسخ ذلك.

❑ ❑ ❑

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، **فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل؛ حيث**

كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما؛ فإنه يُراد بالسميع في مقام الدعاء ـ دعاء العبادة، ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب؛ كما قال الخليل في الآية الاخرى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

التعليق

هذه فائدة: إذا جاء اسم الله السميع في مقام الدعاء، سواء دعاء المسألة أو دعاء العبادة، فهو بمعنى الإجابة أو الاستجابة، ومنه في دعاء العبادة «سمع الله لمن حمده»، فإن الحامد يدعو الله سبحانه وتعالى بعبادته، فمعنى: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب. وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، فهذا دعاء مسألة، فمعنى: سميع، أي: مجيب الدعاء.

وأما نحو قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فهو سمع بمعنى إدراك المسموع.

❑ ❑ ❑

وأما خَتْم قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، **بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٩]، **أي: فكما أن بعثتك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله، وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمته أن يترك الخلق سدى ـ عبثاً ـ لا يرسل إليهم رسولاً، فحقّق الله حكمته ببعثته لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها ـ قدريُّها وشرعيُّها ـ لا تقوم إلا بعزة الله ونفوذ حكمه.**

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها، وجزائها؛ لينبّه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم

العظيم عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، لم يقل: فلكم من العقوبة كذا؛ بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، أي: فإذا عرفتم عزته (وهو قهره، وغلبته، وقوته، وامتناعه)، وعرفتم حكمته (وهو وضعه الأشياء مواضعها، وتنزيلها مَحالّها)، أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة ـ وهو المصرُّ على الذنب مع علمه ـ وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه؛ لكمال قهره وعزّته.

وكذلك لما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، لم يقل: فاعفوا عنهم، أو: اتركوهم، ونحوها؛ بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن مَن تاب وأناب، فإن الله يغفر له ويرحمه فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق، قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، أي: عزَّ وحكم فقطع يد السارق، وعَزَّ وحكم فعاقب المعتدي شرعاً، وقدراً، وجزاء.

ولما ذكر الله مواريث الورثة وقدَّرها، قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فكونه عليماً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفصَّله في توزيع الأموال على مستحقيها، الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وُكِل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزِّعوه أنتم بحسب

اجتهادكم؛ لدخلها الجهل والهوى، وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضى، وحصل في ذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع؛ ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا، أو كذا، فهو قادح في علم الله، وفي حكمته؛ ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد؛ ليبيِّن للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه، ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: تعبّدوا لله بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة خُتمت باسمين كريمين؛ فالأولى منها هذه، خَتْمُها بالعلم والحلم يقتضي علمه بنيّاتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم؛ فكأنهم ما فعلوها.

وخَتَم الثانية بالعفوِّ الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل ـ وهو العفو وعدم معاقبة المسيء ـ وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا الله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين؛ لتنالوا عفوه ومغفرته.

وخَتْمُ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات، وتباين الحالات.

وخَتْم الآية الرابعة بالعليّ الكبير؛ لأن علوَّه المطلق، وكبرياءه، وعظمته، ومجده، تضمحل معها المخلوقات، ويبطل معها كل ما عُبد من دونه، وبإثبات كمال علوّه، وكبريائه يتعين أنه هو الحق، وما سواه باطل.

وخَتَم الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالَّيْن على سِعة علمه وخبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور، وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق بما أنزله من الماء النمير والخير الغزير.

وخَتَمَ الآية السادسة بالغني الحميد، بعد ما ذَكَر مُلكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها حاجة منه لها؛ فإنه الغني المطلق؛ ولا ليتكمّل بها، فإنه الحميد الكامل؛ وليدلّهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميدٌ في شرعه، حميدٌ في جزائه؛ فله الحمد المطلق ذاتاً، وصفاتاً، وأفعالاً.

وخَتْمُ الآية السابعة بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته، ورحمته، تسخيره المخلوقات لبني آدم، وحفظ السماوات والأرض، وإبقائها لئلا تزول فتختل مصالحهم، ومن رحمته سخّر لهم البحار؛ لتجري في منافعهم، ومصالحهم؛ فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم، وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أُممهم ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١]، فإن كل قصة تضمَّنت نجاة النبيّ وأتباعه؛

وذلك برحمة الله ولطفه، وإهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته، وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجّى الرسول وأتباعه بكمال قوته، وعزته، ورحمته؛ وأهلك المكذبين بعزته وحكمته. ويكون ذكر الرحمة يقتضي عظم جرمهم، وأنه لولا أن جرمهم تعاظم، وسدّوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يكن لهم طريق إليها، لَما أحلّ بهم العقاب.

وأما قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: أنت الغفور الرحيم. فإن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه إلهاً مع الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة، وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة، مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ وذلك يدلّ على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وُجد فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار مَن كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

التعليق

الخلاصة: تتضمن هذه القاعدة قاعدتين، أو قاعدة واحدة لها وجهان:

الأول: أن ختم الآية باسم من أسماء الله تعالى لا يكون إلا مناسباً لذلك الحكم. ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء إلا لسبب، مثل قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، فقد يقول قائل: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لكن لما كان المقام مقام عزّة، وكمالُ تصرف؛ لكون هؤلاء لهم حالان: إما عذاب، وإما رحمة ومغفرة؛ فلهم ما تقتضيه العزة والحكمة بسبب عنادهم واستكبارهم.

الوجه الثاني: أن ختم الآية باسم من أسماء الله يدل على أن الحكم مطابق لذلك الاسم. وهذا الوجه غير الوجه الأول، فمثلاً قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، يتوقع الإنسان أن يقال: فتسقط عنهم العقوبة، لكنه لم يقل هكذا، وإنما قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، أي: لقد سقط عنهم الحدّ بمقتضى مغفرة الله ورحمته. ومن ذلك قوله تعالى في المولي: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ ـ ٢٢٧]؛ لأن فَيْأهم إلى زوجاتهم مما يحبه الله ويكون سبباً للمغفرة والرحمة. وأما عزمهم الطلاق، فهو أمر ليس محبوباً إلى الله، ولهذا قرنه بما يفيد أو يشير إلى نوع من العقوبة، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فائدة: المعرّف «بأل» يدل على ملاحظة أصل الصفة، مثل:

الفضل، العباس؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. الآيتان سواء في اللفظ وفي كل شيء، إلا في التعريف في سميع عليم، فتكون الآية الأولى لوحظ فيها مطلق الصفة، والثانية لوحظ فيها كمال الصفة.

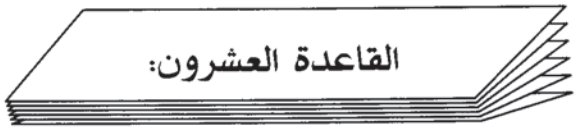

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات؛ وأنه: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام، ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح، ونواهيه متعلِّقة بالشرور، والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، أي: متشابهاً في الحسن، والصدق، والحق، وروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهِّرة للقلوب، المصلِحة للأحوال؛ فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فهنا وصفه بأن بعضه هكذا، وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسَّره الموضع الآخر المحكم؛ فحصل العلم، وزال الإشكال؛ ولهذا النوع أمثلة:

منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فإذا اشتبهت على من ظنّ به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب، وضّحت هذا الإطلاق الآيات الأُخر، الدالّة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها؛ مثل قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وأن إضلاله لعبده لها أسباب من العبد، وهو تولّيه للشيطان ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]. وإذا اشتبهت على الجبري، الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بيَّنتها الآيات الأُخر الكثيرة، الدالّة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة؛ كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد، حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، وظنّوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم، ولا قدّرها، تُليت عليه الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان، والأعمال، والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد، وأن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين. وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها، والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فهي واقعة منهم، وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم، وخَلَق قدرتهم وإرادتهم، وما أُجمل في بعض الآيات فسَّرته آيات أُخر، وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر، وما كان معروفاً بين الناس، وورد فيه القرآن، أمراً، أو

نهياً، كالصلاة، والزكاة، والزنى، والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً؛ لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبّسين، فليس فيه إشكال بوجه، والله أعلم.

التعليق

هذه القاعدة بيّن فيها المؤلف أن الله تعالى وصف القرآن بأنه مُحْكَمٌ، وبأنه متشابه، وبأنه جامع بينهما؛ مُحْكَمٌ ومتشابه.

فعلى المعنى الأول: محكم، أي: متقن، فأخباره صدق وأحكامه عدل؛ لأن الخلل في الخبر يكون بمخالفة الصدق، والخلل في الحكم يكون بمخالفة العدل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

إذن: كله محكم من هذا الوجه، أي: متقن في أخباره وفي أحكامه، ففي أخباره نقول: كلها صدق ليس فيها كذب، وفي أحكامه: كلها عدل ليس فيها جور ولا ظلم بوجهٍ من الوجوه، ونزيد أيضاً بالنسبة لشريعة الإسلام المحمدية أن أحكامها كلها يسر ليس فيها مشقة، كما قال الله تعالى في وصف النبيّ ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ووصفه بأنه متشابه، أي: يشبه بعضه بعضاً في الكمال، والجودة في الأسلوب، والبلاغة في الصدق، والعدل، وفي النفع، وفي كل شيء، فبعضه يشبه بعضاً لا يخالفه أبداً، ولا يناقضه؛ فجمع بين الأمرين: الإحكام والتشابه، فمعنى الإحكام هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: واضحات جليات؛ فالإحكام هنا بمعنى الإيضاح والبيان. والمتشابه هو: الخفي المعنى الذي لا يتبين وجه صوابه إلا للراسخين في العلم؛

ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني: وأما الراسخون في العلم فيقولون: آمنا به ويعلمون منه ما يخفى على غيرهم، وهنا محط النزاع ومحكّ الأفكار وموضع الاختبار، فإن من الناس مَن إذا رأى مثل هذه النصوص المتشابهة التي ظاهرها يخالف بعضاً أخذ منها سبباً للطعن في القرآن الكريم، وقال: إن هذا القرآن يتناقض، يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ثم يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إذا كان سميعاً بصيراً، فقد ماثل مَن له سمع وبصر! إذن فيه اشتباه. وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] يناقض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] يناقض قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فمثل هذه الآيات قد يقول قائل: كيف؟ هذا تناقض! نعم هم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويقول في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فالذي حلف أنه ليس مشركاً كاتم، بل حالف على ذلك وهو كاذب، فهذا تناقض، وقائل هذا هم الذين في قلوبهم زيغ، والعياذ بالله، يتبعون هذا المتشابه.

الوجه الثالث: المحكم، تعريفه: الواضح البيِّن، والمتشابه: الخفي الذي لا يتبين إلا للراسخين في العلم.

فإن قلت: ما الحكمة في أن الله عز وجل يجعل هذا؟ لماذا لم يكن القرآن كله محكماً ظاهر المعنى بيِّناً؟

قلت: الحكمة في ذلك الامتحان والاختبار؛ لأن الزائغين

يتخذون من ذلك مطعناً في القرآن ليبرّروا لأنفسهم الكفر به والعياذ بالله، وأما الراسخون في العلم، فيتخذون من هذا بياناً للحكمة؛ حكمة الله جل وعلا في جعل القرآن على هذين الوجهين محكماً ومتشابهاً، حتى يحيا من حي عن بيِّنة، ويهلك من هلك عن بيِّنة، وهذا كما نراه في كلمات الله الشرعية يكون أيضاً في كلمات الله الكونية؛ فمثلاً: قد يأتي رجل إلى صاحب قبر، فيقول: يا ولي الله، يا سيدي! يا ملجئي! يا مستغاثي! أنقذ ولدي من المرض، فإذا ذهب إلى البيت وجد ولده قد برئ! فيقع في اشتباه أن الذي أجاب دعوته، هذا الولي صاحب القبر، لكن عندما يرد مثل هذه الحال إلى الراسخين في العلم، يقولون: لا يمكن أن يكون هذا من صاحب القبر؛ لأن صاحب القبر ليس إلٰهاً دون الله سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فيقول الراسخون في العلم: نحن نعلم علم اليقين أن هذا البرء ليس من أثر دعاء هؤلاء، ولكنه فتنة من الله عز وجل حصل عند دعاء هؤلاء، لا بدعائهم.

القاعدة الحادية والعشرون:

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان، والأحوال، في أحكامه الراجعة للعرف، والعوائد.

وهذه قاعدة جلية المقدار، عظيمة النفع؛ فإن الله أمر عباده بالمعروف (وهو: ما عُرف حُسنه شرعاً، وعقلاً، وعرفاً)، ونهاهم عن المنكر (وهو: ما ظهر قبحه شرعاً، وعقلاً، وعُرفاً)، وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك؛ فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال، والأوقات؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأوّلين من هذه الأُمّة، وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات؛ كالشرك، والقتل بغير حق، والزنى، وشرب الخمر ونحوها؛ ثبتت في كل زمان ومكان، لا تتغير، ولا يختلف حكمها، وما كان يختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، هو المراد هنا؛ فإن الله تعالى يردّهم فيه إلى العرف، والعادة، والمصلحة المتعيّنة في ذلك الوقت؛ وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعيِّن لعباده شيئاً مخصوصاً من الإحسان والبر؛ ليعمّ كل ما تجدَّد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر؛ فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك، ومكانك، في حقِّ والديك.

ومثل ذلك ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب، والجيران، والأصحاب ونحوهم؛ فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً، وكذلك ضدّه من العقوق، والإساءة، ينظر فيه إلى العرف.

التعليق

يعني: ما تعارف عليه الناس أن هذه صلته يكفي؛ لأنه أمر بالصلة وأطلق، فيرجع فيه إلى ما سماه الناس صلة؛ لأن المقصود بالصلة زوال ما في القلوب وائتلافها، إذا كان هذا الرجل قد وطّن نفسه على أن صاحبه أو قريبه لا يزوره إلا في يوم العيد أو في الأسبوع أو ما أشبه ذلك، ما صار ذلك قطيعة، فما عُدَّ صلة فهو صلة، أما من كان لا يأتيهم أبداً، ولا يأتيهم في المناسبات ولا يدري عنهم ولا يزورهم ولا يعرف إذا مرضوا أو ماتوا، فهذه قطيعة.

وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: «**راجع في نوعه وجنسه وأفراده**» النوع يختلف؛ فمثلاً: أحد تصله بدراهم، وأحد تصله بثوب، وأحد تصله بقلم، حسب الأفراد. حسب الجنس: لو أعطيت شخصاً كبيراً عظيماً غنياً مئة ريال لغضب عليك، ولو أعطيتها قريباً فقيراً، لفرح وسرَّه ذلك.

أما ما دلّ الشرع على تحريمه، فهذا لا يكون صلة؛ فلو أن الناس قالوا: نحن تعارفنا أن ابنة العم تصافح ابن عمها بيدها، ولو قالت له: هذا حرام، وكفّت يدها؛ لغضب، نقول: الشيء الذي نصّ الشرع على تحريمه لا يمكن أن يتواصل الناس به أبداً.

❑ ❑ ❑

وكذلك قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ **فردَّ الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك، وحالك؛ وذلك يختلف اختلافاً عظيماً لا يمكن إحصاؤه عدّاً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن، وبراهين صدقه.**

وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ **فأمر عباده بالأكل والشرب، واللباس، ولم يعيِّن شيئاً من الطعام والشراب، واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلَّق بها أمره حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن فقط.**

وكذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، **ومن المعلوم أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة الموجودة بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يُستطاع من القوة في كل وقت بما يناسبه ويليق به.**

وكذلك لما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، **لم يعيّن لنا نوعاً من التجارة، ولا جنساً، ولم يحدِّد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عُدَّ تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن كل ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقّق الرضى من قول أو فعل انعقدت به المعاوضات، والتبرعات، وكم في القرآن من هذا النوع شيء كثير.**

القاعدة الثانية والعشرون:

في مقاصد أمثلة القرآن.

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى، وأكمل، وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه؛ فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمّة؛ كالتوحيد، وحال الموحِّد، والشرك، وحالة أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي عين، وهذا من عناية الباري بعباده، ولطفه، فقد مثَّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي؛ فمنها أراضٍ طيبة تقبل الماء، وتنبت الكلأ والعشب الكثير، كمثل القلوب الفاهمة، التي تفهم عن الله ورسوله وحيه، وكلامه، وتعقله، وتعمل به: علماً، وتعليماً، بحسب حالها؛ كالأراضي بحسب حالها. ومنها أراضٍ تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه، فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم؛ كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة، وتلقيه إلى الأُمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين، وهؤلاء على خير، ولكنهم

دون أولئك. ومنها أراض لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ؛ كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي، لا علماً، ولا حفظاً، ولا عملاً.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور...

التعليق

الأوّلون بمنزلة الأطباء، والآخرون بمنزلة الصيادلة. ومعلوم أن انتفاع الناس بالأطباء أكثر من انتفاعهم بالصيادلة، فحفّاظ الحديث ورواة الحديث الذين ليس عندهم فقه وعلم هم بمنزلة هؤلاء، مثل الأرض التي يصيبها المطر؛ لكنها لا تنبت، وإنما تحفظ الماء، فمن جاء استقى وشرب وانتفع. وأما أهل العلم والفقه، فإنهم كالأراضي الخصبة التي تنبت، فينتفع الناس به.

❑ ❑ ❑

... وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك؛ لأن الغيث فيه حياة الأرض، والعباد، وأرزاقهم الحسية. والوحي فيه حياة القلوب والأرواح، ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثَّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربّها، فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها، معرفة، وتصديقاً، وإيماناً، وإرادة لموجبها، وتؤتي أُكلها وهو منافعها كل وقت، من النيّات الطيبة، والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة، والهدي المستقيم، ونفع صاحبها، وانتفاع الناس به، وهي صاعدة إلى السماء؛ لإخلاص صاحبها، وعلمه، ويقينه.

ومثَّل الله الشرك والمشرك بأن من اتخذ مع الله إلٰهاً يتعزَّز به،

ويزعم منه النفع، ودفع الضرر، في ضعفه ووهنه؛ كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت، وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفاً إلى ضعفها!! كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه ولياً ونصيراً من دون الله إلّا ضعفاً؛ لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وهناً إلى وهنه؛ فإنه اتّكل عليه، وظنَ منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله!!

وأما المؤمن، فإنه قوي بالله بقوة إيمانه وتوحيده، وتعلقه بالله وحده الذي بيده الأمر، والنفع، ودفع الضرر، وهو متصرِّف في أحواله كلها؛ كالعبد الذي على صراط مستقيم، في أقواله، وأفعاله، منطلق الإرادة، حراً عن رقّ المخلوقين، غير مقيد لهم بوجهٍ من الوجوه؛ بخلاف المشرك، فإنه كالعبد الأصم الأبكم، الذي هو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأتِ بخير؛ لأن قلبه متقيد للمخلوقين، مُسترقٌّ لهم، ليس له انطلاق وتصرف في الخير، فمثله أيضاً كالذي خرَّ من السماء فتخطَّفَتْه الطيور، ومزَّقته كل ممزَّق.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون، لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات ـ وهو الذباب ـ لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم؟ فكيف بفرد من مليات الألوف منهم؟ وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لم يقدروا على استخلاصه منه وردّه، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور، وهذا الوهن والضعف منقسم قلبه بين عدّة آلهة؛ كالعبد الذي بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر، فهو معهم في

شرٌّ دائم، وشقاء متراكم، فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحِّد، فإنه خالص لربّه، لا يعبد إلا هو، ولا يرجو ويخشى إلا هو، وقد اطمأنَّ قلبه واستراح، وعلم أنه على الدين الحق، وأن عاقبته أحمد العواقب، ومآله الخير والفلاح، والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له، الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضَحَى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له، كالطَّلِّ الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها؛ فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار، وطيب الظلال، ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن عن انقطاعه وتلفه، فإن كان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف عن العمل، وعنده عائلة ضعاف، لا مساعدة منهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته، ومادة عائلته، ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه، وأتلفه عن آخره، فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك، أو النفاق، أو المعاصي المحرقة، فيا ويحه بعد ما كان بستانه زاكياً زاهياً أصبح تالفاً، قد أيِس من عوده، وبقي بحسرته مع عائلته!! فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها، فقد ذكر الله صفة بستان من ثبّته الله على الإيمان والعمل، وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضادّه.